العثور على النسخة المسروقة من كتاب
تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر

الدكتور ابو القاسم سعد الله

١ ـ كيف عثرنا على النسخة ووصفها :

كل من قرأ النسخة المطبوعة من كتاب (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر)[١] يذكر أن المؤلف محمد باشا بن الأمير عبد القادر ، كتب في مقدمتها ما يلي : « ولما فرغتُ من ترتيبه ... وسميته (تحفة الزائر ...) فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا ... ثم شمرت عن ساعد الاجتهاد ، لجمع ما تفرق من المواد ، بعد ان فقد منها الاكثر ... فجاء مطابقا للأصل ... »[٢] .

ومنذ قرأتُ انا تلك العبارات ، من نحو عشرين سنة خلت ، وسؤال يلح علي وهو : أين النسخة المسروقة من هذا الكتاب ، وهي النسخة التي سماها المؤلف (الاصل) ؟ فالاشياء المسروقة عادة لا تعدم بالضرورة ولكنها تنتقل من يد الى يد ومن مكان الى آخر . ولم يكن السؤال : من سرقها ؟ أو لماذا سرقت ؟ قضية هامة عندئذ . كما ان الفرق الذي قد يكون بين النسخة الاصل والنسخة الفرع لم يكن مهما ايضا . أما القضية الملحة في نظري فكانت البحث عن مكان تلك النسخة التي ادعى المؤلف أنها سرقت منه بعد الانتهاء منها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقد استمر بحثي عنها في كل المظان الممكنة : دمشق والاسكندرية واسطانبول وباريس ، وهي البلدان التي تردد عليها المؤلف والتي يوجد فيها من يهمه موضوع الكتاب . وكانت النتائج دائما مخيبة للآمال ، ولكن اليأس لم يتطرق الى البال . وزاد من حماستي للبحث أن الطبعة الثانية للكتاب التي صدرت بعناية الدكتور ممدوح حقي لم تقدم نقدا ما لقضية النسخة المسروقة ، رغم أن المحقق كان قريبا من بيئة المؤلف وقريبا من أسرته الموزعة بين سورية واسطانبول[٣] .

وفي زيارتي لاسطانبول في شهر آب (اغسطس) ١٩٧٠ ، تمكنت من الاطلاع على نسخة مخطوطة من كتاب (تحفة الزائر ...) في احدى مكتبات اسطانبول . وكان عنوانها هناك (تاريخ الامير عبد القادر) وقد بادرتُ الى تصفحها وقرأت مقدمتها ، فاذا هناك فروق بين ما سبقت لي معرفته عن النسخة المطبوعة وهذه . وأول مالاحظته من فروق بين النسختين هو ان المخطوطة ليس فيها عبارة « فسطت عليه يد من لا بارك الله بأصله ونسله ، وسرقَتْه عمدا .. الخ » كما أن المخطوطة احتوت على إهداء طويل الذيل الى السلطان عبد الحميد الثاني ، وهو شيء خلت منه النسخة المطبوعة . ثم أخذتُ ألاحظ بقية الفروق بين النسختين لا على سبيل التحقيق والمقارنة الدقيقة ولكن على سبيل الفضول ، لأن الوقت والظرف لا يسمحان بذلك عندئذ . ولكني سجلت بداية النسخة المخطوطة ونهايتها وبعض الملاحظات على خطها وشكلها ، ودونت كذلك رقمها ، ونويت تصويرها لعقد مقارنة بينها وبين المطبوعة عندما يكون هناك متسع من الوقت . ولكن تمويل التصوير عندئذ كان يعوزني (والمخطوط في الف صفحة) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واليك ما كتبتُ في كناشي عندما رأيت النسخة المخطوطة من هذا الكتاب لأول مرة باسطانبول : « تاريخ الامير عبد القادر ، جزآن منفصلان . مخطوط بخط نسخي جميل ، مذهب ومجلد . أهداه المؤلف الى السلطان عبد الحميد الثاني . فرغ منه سنة ١٣٠٧ هـ ، ١٨٩٠ م . لا يذكر المؤلف في المقدمة أنه سرق منه . في الجزء الاول قصيدة منفصلة لمحمد الشاذلي القسنطيني ، اولها :

أيا ذاهباً نحو الخليفة بَلِّغَنْ سلاماً ...

وهو يحمل رقم ٤٧٨٨ ، مكتبة الحاج محمود افندي بالمكتبة السليمانية باسطانبول . ويحتوي الكتاب أيضا على عدة وثائق منفصلة ، منها واحدة في « ذكر هيئة المعسكر وترتيبه في السفر » وهي بخط رقعي مغاير للاصل . أول الجزء الاول « الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علما ، وأنفذ في كل مخلوق قضاء أزليا وحكما ... » ويقع الجزء الاول في ٤٩٨ صفحة ، والثاني في ٥٠٣ صفحة » انتهى من كناشي المؤرخ سنة ١٩٧٠ ، اسطانبول .

ولما رجعتُ الى الجزائر ، طلبت من مكتبة الجامعة تصوير المخطوط على نفقتي ، واعطيتها الرقم والمعلومات الاضافية . ووقعت المراسلة بينها وبين المكتبة التركية ، ولكن هذه المكتبة لجأت الى ما يمكن أن نسميه (بالشانتاج) ، فاشترطت لتصوير المخطوطة ، المبادلة بنسخة من كتاب الدكتور محمد بن أبي شنب عن مخطوطات مكتبة الجامع الكبير بالجزائر ، وقد وفت مكتبة جامعة الجزائر بالشرط وجاءت النسخة المخطوطة من كتاب (تحفة الزائر) على الميكروفيلم . ورغم أن النسخة كما رأيتها وكما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

سأذكر ، جيدة وكاملة ، فان تصويرها جاء ناقصا ومشوها في بعض الحالات . ثم شُغِلت عنها بعض الوقت باعداد كتابي (تاريخ الجزائر الثقافي) ، الى أن حانت مصادفة رويت فيها للدكتور عبد الجليل التميمي حديث نسختي من كتاب تحفة الزائر ، فأخبرني أنه يملك هو أيضا صورة من نفس النسخة على الميكروفيلم وأرسل الي مشكورا نسخته لتدارك النقص وهذا ما تم فعلا[٤] .

٢ ـ حياة المؤلف :

ليس من غرضنا هنا التوسع في الحديث عن أسرة الأمير عبد القادر بالمشرق واستيطانها بلاد الشام وظروفها وعلاقاتها ، لان ذلك يخرجنا عن موضوعنا المحدد ، ولأن هناك مصادر أخرى تحدثت عن ذلك ، ومنها كتاب (تحفة الزائر) نفسه . ويكفي هنا أن نذكر بعض المعلومات عن مؤلف هذا الكتاب لعل ذلك يساعدنا على معرفة ظروف نسخته الضائعة ويلقي الاضواء على « سارقها » والهدف من أخذها منه ، وظروف تأليف النسخة الأولى (الاصلية) والثانية (الفرعية) .

ولد محمد لوالده عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن المختار ، في القيطنة بالجزائر عام ١٨٤٠ م ١٢٥٦ هـ[٥] . والقيطنة هي مسقط رأس والده ايضا ، وهي تقع على وادي الحمام ، غير بعيد من مدينة معسكر اليوم (او أم العساكر) ، عاصمة دولة الأمير عبد القادر . وكان محمد اكبر ابناء الامير عبد القادر من زوجه ، ابنة عمه ، خيرة . وقد عاش محمد طفولة مضطربة حقا . فقد ولد اثناء تصاعد الكفاح بين الجزائريين بقيادة والده ، وبين الفرنسيين . ففي آخر سنة ١٨٣٩ م استؤنفت الحربُ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بين الأمير والجيش الفرنسي ، بعد معاهدة التافنة التي كانت عبارة عن هدنة . وفي ١٨٤١ ، جاء الجنرال بوجو المشهور الى الجزائر وعنده صلاحيات لمحاربة الأمير في كل مكان وبكل الوسائل ، وهي الحرب التي استمرت الى سنة ١٨٤٧ ، تاريخ هزيمة الأمير وأخذه أسيراً الى فرنسا . اذن لقد عاش محمد ثماني سنوات من الحرب الضروس بين بلاده وفرنسا ، ثم خمس سنوات من الأسر في سجون فرنسا ، آخرها هو سجن امبواز بنواحي بوردو ، وبعد نحو سنتين في بروسة نزلت أسرة الأمير بدمشق حيث استقر بها المقام .

اذن لم يعرف الامير محمد الاستقرار لا في الجزائر ولا في فرنسا ولا في بروسة . لقد فتح عينيه على الحرب والخوف بالجزائر وعلى الاسر والغربة بفرنسا وعلى الزلزال في بروسة . فلم يتلق تعليما منتظما ولم يعرف حياة اجتماعية هادئة ولا اصدقاء ثابتين . ولاشك أن والده قد تكفل بتعليمه في امبواز ووضعه على الخصوص تحت إشراف صهره مصطفى بن التهامي . ولكن ذلك كان غير كاف ليتعلم الطفل محمد تعليما منتظما . ولاشك ايضا ان الطفل ، وقد دخل مرحلة المراهقة ، قد عوض في دمشق ما فقده في موطنه ومهاجره الاخرى ، فاختلف الى مدارسها وتمكن من دروس علمائها ونهل من مكتباتها ، ولكن قاعدة تعليمه تظل في نظرنا ، واهية على اية حال .

ومهما كان الامر ، فان الشام ، والمشرق عموما قد اخذت تدب في أوصالها بواكير النهضة الادبية والسياسية عندما نزلتها أسرة الامير عبد القادر . ولم يمض وقت طويل حتى انتشرت الصحافة والجمعيات الادبية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحركة الجامعة الاسلامية والمنتديات العربية . وكانت أسرة الامير نهب الرياح تتجاذبها خيوط السياسة تارة نحو فرنسا وتارة نحو الدولة العثمانية وتارة نحو العزلة والانكماش وتارة اخرى نحو التيار العربي القومي . ولم يكن الامير محمد بعيداً عن هذه الاجواء . فهو كبير والده ، يرافقه حيث حل وارتحل ، ويطلع على أسراره وأخباره . لقد رافقه يوم ودع نابليون الثالث بباريس ويوم استقبله السلطان عبد الحميد باسطانبول . وسافر معه الى فرنسا ثانية وإلى مصر . ولكننا لاندري ان كان سافر معه في رحلته الى لندن[٦] . وكان يحضر مجالس والده مع أعيان الشام وغيرهم من زعماء العالم الاسلامي ، ومن الاوربيين ايضا . وقد اخبر هو عن نفسه أنه كان يلازم والده محتذيا حذوه في جميع أعماله ، وأنه قرأ عليه التوحيد والحديث والنحو ، وأنه استفاد منه ما يهمه في القديم والحديث .

وهكذا يتضح ان ثقافته ثقافة عصامية ـ اذا صح التعبير ـ تولاها والده ، والمجتمع الشامي ، ثم الحياة العامة وجهوده الشخصية . ويبدو أنه كان مهتما بالأدب والتاريخ . ذلك أن ثقافته التاريخيه الاسلامية تبدو غزيرة من كتابه (تحفة الزائر) ومن كتبه الأخرى التي سنذكرها . وأسلوبه الادبي ، المبني على السجع في معظمه ، غني ومتنوع مما يبرهن على كثرة مطالعاته ومحفوظاته . كما أن له اهتماما بالقضايا الاجتماعية المعاصرة كما سنرى أيضا . ورغم عيشته في فرنسا عدة سنوات سجيناً وزائراً فانه لم يتعلم الفرنسية ، كما يدل ذلك التجاؤه الى المترجمين في أسفاره من جهة وفي استحضار مادة كتابه من جهة أخرى .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ويبدو أن الامير محمداً قد اعتنق مبدأ الجامعة الاسلامية ، ولكنه لم يكن نشيطاً فيها نشاط بعض أنصارها الآخرين . وكأنه في ذلك كان يتبع سيرة والده الذي لا نجده قد اتخذ مواقف بارزة لصالح هذه الحركة رغم اجتماعه ومجالسته لبعض زعمائها مثل الشيخ محمد عبده ومحمد شمويل (شامل) الداغستاني . وتدل التعزية التي بعث بها محمد عبده الى الامير محمد واخيه محي الدين في والدهما الامير عبد القادر ، أنه كان يعرفهما شخصيا اثناء مجالسته لوالدهما . فقد كتب محمد رشيد رضا مقدما هذه التعزية بقوله : « وكتب منها (اي من رسائل التعازي) معزيا عن الامير عبد القادر الجزائري الشهير ، وكانت صلة المودة بينهما محكمة العرى ، كما اشير اليه في بعض المكتوبات الاصلاحية »[٧] ، ومما جاء في هذه الرسالة قول الشيخ محمد عبده : « وكفى في مصيبة أهل الايمان أن يقال : أصبحوا بلا امير ، وحسبهم تعزية عن مصابهم انكم بنوه وورثة فضله ومعززوه » وفي رسالة أخرى بعث بها محمد عبده الى الشيخ عبد المجيد الخاني طلب منه ابلاغ تحياته الى الامير محمد وأخيه محي الدين[٨] .

وكان ولاء الامير محمد للدولة العثمانية لا غبار عليه . فهو يكثر من الدعاء الى سلاطينها ، وبعد مبايعة الأسرة له جاءه وسام (نيشان) وراتب من السلطان عبد الحميد ، وكان على صلة بوالي دمشق عندئذ ، وقد حصل على لقب « الباشا » ، وأصبح فيما يقال ، ضابطا في الجيش العثماني . ولاشك ان هذا الولاء الواضح للدولة العثمانية قد كلفه غضب ، او على الاقل شك ، الفرنسيين فيه . ومع ذلك لانجد له عاطفة عداء قوية ضد الفرنسيين فوصفه لهم اثناء كتابه وصف محايد ، أو قل هو وصف تاريخي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكما لم نجد له موقفا متحمسا من الجامعة الاسلامية ، لم نجد له ايضا موقفا متحمسا من الوطنية أو من قضية الجزائر . فرغم أنه عاش الى سنة ١٩١٣[٩] ، وهو تاريخ سبقته عدة أحداث تهم القضية الجزائرية فاننا لا نجده قد شارك أو كتب ما يدل على عاطفته الوطنية القومية او العدائية نحو السلطة الاستعمارية . حقا ان حنينه الى الوطن قوي جدا ، يشير اليه في عدة مناسبات بألفاظ واضحة وأشعار مؤثرة ، ولكن الأمر لم يتجاوز الحنين الى الفعل . ولا نعلم انه زار الجزائر او حتى مسقط راسه الذي طالما حن اليه . فهل حاول ذلك ومنع منه ، او لم يكن ذلك في نيته اصلا ؟

ومهما كان الامر فقد أصبح ، بعد وفاة والده ، هو كبير الأسرة على اثر مبايعة اخوته له في وثيقة وقعوها بذلك . ولم يكن أبناء الامير العشرة من أم واحدة . وكان الولاء فيما بينهم ضعيفاً ، والمصالح الاجتماعية والسياسية تجعلهم في اتجاهات متعاكسة أحياناً . وكان ولاء أبناء الامير موزعا بين الدولة العثمانية وفرنسا . واذا كان ولاء الاخوة محي الدين ومحمد وعلي واضحا نحو الدولة العثمانية ، فان ولاء عمر ، والهاشمي ، وعبد المالك كان ، على الأقل ، قبل الحرب العالمية الاولى ، نحو فرنسا . ولانعرف ولاء بقية الاخوة[١٠] . وقد ترك الامير محمد بعض الابناء ، منهم علي زين العابدين الذي ترك احمد مختار الذي ترك السيدة أمل التي التقينا بها في الجزائر يوم ٢٥ أيار (مايو) ١٩٨٣[١١] .

وبالاضافة الى شؤون الاسرة ، كان الامير محمد (باشا) يشتغل بالتأليف . وقبل أن نتحدث عن مخطوطه (تحفة الزائر) ، نذكر أنه الف عدة كتب هي :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(١) ـ تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر ، طبع للمرة الاولى في الاسكندرية (مصر) ، ١٩٠٣ . وهو في جزأين[١٢] وسنتحدث عنه .

(٢) ـ مجموع فيه ثلاث رسائل او ابحاث ، مطبوعة في مصر (القاهرة) ، بدون تاريخ ، وهي :

أ ـ ذكرى ذوي الفضل في مطابقة أركان الاسلام للعقل .

ب ـ كشف النقاب عن أسرار الاحتجاب .

ج ـ الفاروق والترياق في تعدد الزوجات والطلاق .

(٣) ـ عقد الاجياد في الصافنات الجياد (مطول) ، وهو مطبوع حسبما جاء في الاعلام[١٣] .

(٤) ـ نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد ، وهو مختصر من الاول ، ومطبوع طبعتين في بيروت ، الاولى سنة ١٢٩٣ في ٤١٠ ص . والثانية سنة ١٣٢٦ ، في ٣٠٤ ص . وموضوع هذا الكتاب كما يدل عنوانه في أوصاف الخيل وتاريخها وآدابها .

(٥) ـ نزهة الخاطر في قريض الامير عبد القادر ، طبع المعارف بمصر ، بدون تاريخ ، في ٥٨ ص . والكتاب الاخير جمع فيه بعض ما تفرق من شعر والده ، ولكن لم يأت عليه جميعا[١٤] .

واذا حكمنا على تفكيره واهتمامه من مؤلفاته فاننا نجد الأمير محمداً منسجماً مع التيار الاصلاحي الذي ظهر في النصف الثاني من القرن الماضي في المشرق عموماً وفي الدولة العثمانية على وجه الخصوص . فهو يتحدث عن قضية تعدد الزوجات ويقدم لها الحلول الاجتماعية والشرعية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

او « الفاروق والترياق » كما يقول . وهو يكتب عن عقلانية الاسلام (اذا صح التعبير) أو مطابقة التعاليم الاسلامية لاحكام العقل ، وهو رأي يحاذي آراء المدرسة العبدوية ، وهو من جهة ثالثة يتناول موضوع السفور والحجاب الذي طال فيه النقاش ـ وما يزال ـ في عهد الدعوة الاصلاحية المشار اليه ، والف فيه كل من قاسم امين بمصر والطاهر الحداد بتونس ومصطفى بن الخوجة في الجزائر . واذا كانت رسائله قد ركزت على موضوعات اجتماعية فان كتابيه المطولين (عقد الاجياد) و (تحفة الزائر) لا يخرجان عن التاريخ والأدب . ويهمنا الآن تفصيل الحديث عن الاخير منهما .

٣ ـ تحفة الزائر وظروف تأليفه :

ان الظروف التي أقنعت الامير محمداً بتاليف (تحفة الزائر) تذكر المرء بالظروف التي أقنعت أحمد المقري بتأليف (نفح الطيب) رغم فارق ثلاثة قرون بين الرجلين . فكلا الرجلين أجبرته الظروف السياسية على الهجرة الى دمشق ، وكلاهما كان يكثر من الحنين الى وطنه الاول ويسترجع ذكرياته ، وكلاهما من غرب الجزائر ، فالمقري من تلمسان والامير محمد من نواحي معسكر ، وكلاهما له بطل يملأ عليه وجوده الأدبي والتاريخي ، وهذا البطل هو لسان الدين بن الخطيب والأندلس عند المقري ، وهو الأمير عبد القادر والجزائر عند الامير محمد ، وكلاهما كان يبكي مجداً غارباً وبلدا عربياً اسلاميا ضائعا (الاندلس والجزائر)، وأخيراً وليس آخرا ، فان اهل الشام هم الذين « أقنعوا » الرجلين بالكتابة وأغروهما بالتدوين بدل البكاء والحنين . ونحن بالطبع لا تهمنا هنا تجربة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المقري مع بطله ومع أهل الشام[١٥] لان موضوعنا هو ظروف تأليف (تحفة الزائر) .

كان الامير محمد كثير الشوق الى مراتع صباه ، وكانت مناظر الشام الطبيعية تذكره ربوع وادي الحمام وسهل غريس حيث فتح عينيه على الحياة لأول مرة . وكانت الوفود من أهل الشام ومن الجالية المغربية ترد على منزلهم في دمر[١٦] فيتفرع الحديث ويتشعب عن طبيعة الجزائر واهلها وكفاحها ضد الاستعمار الفرنسي وتطواف الأمير عبد القادر وأسرته من الجزائر الى دمشق عبر فرنسا واسطانبول وبروسة . وكان ذلك الحديث يهيج الذكريات ويسيل العبرات . وفي كتاب (تحفة الزائر) كثير من هذه العاطفة الجياشة التي أخرجت صاحب الكتاب احيانا عن مهمته كمؤرخ . ومنذ وفاة الامير عبد القادر[١٧] اصبح الحديث عن سيرته وجمعها في كتاب من آكد الأمور . وازداد الالحاح على الامير محمد في ذلك : اليس هو كبير الاسرة وملازم الوالد وموضع ثقته وأسراره ؟ الم يعرف اكثر من غيره عن كفاح والده وهو في سن الصبا وعن سجنه وهو في سن المراهقة وعن تحولاته من كفاح السيف الى كفاح النفس والتصوف والقلم ؟ الم يرافقه في كل أو جلّ أسفاره ويعرف من زاره أو كتب اليه من كبار العصر ؟ ثم اليس هو اكثر أخوته ثقافة وأميلهم الى الادب والتاريخ واكثرهم اطلاعا على الكتب ، بما في ذلك كتب والده ومذكراته التي آلت اليه ؟

اذن لقد كثر الالحاح وتوالت الرغبات ولكنها لم تنزل على اذن صماء او قلب من جماد ، بل نزلت على اذن مرهفة وقلب مفعم بالاستعداد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ان الامير محمداً كان يحس أن عبئا ثقيلا قد ألقي على كاهله ، وان عليه ان يتحمله وحده كمسؤولية ثقيلة امام الوفاء لوالده ولوطنه ولاسرته التي اعطى لها اهتماما خاصا في الكتاب وابرز دورها التاريخي في الدفاع عن بيضة الاسلام والعربية في الجزائر ، حتى لقد يشعر من لايعرف الخلفيات ان المؤلف « بالغ » في ذكر كلمة « نحن » في كتابه التي لا تعني الا اسرته . ومهما كان الامر ، فانه استجابة لذلك الالحاح وتلك الرغبات قام بتأليف الكتاب : « فحرضوني على القيام بهذا المندوب ... وقالوا لا يخفى ان تحرير احوال الاكابر وتسطير مزاياهم في صفحات الدفاتر ، لمن سنة الكرام ... لاسيما هذا الامير الشهير ... حيث اشبه من السلف عمر بن عبد العزيز في زهده ورشاده ، ومن الخلف يوسف صلاح الدين في حركاته وغزواته وجهاده ، وحكى الشيخ الاكبر فيما يؤثر عنه ويذكر ،... فقلت لعمري قد اصبتم فيما ذكرتم ، وحق ان تجابوا الى ما به اشرتم ... »[١٨] .

ولكن من اين يبدأ ؟ ان هذا النوع من التأليف يحتاج الى مصادر كثيرة ، عربية وأجنبية ، قديمة وحديثة ، وهو عمل غير سهل ايضا ، لأن عليه أن يعود بتاريخ الجزائر الى اقدم العصور وان يلم باحداث المغرب والمشرق وأن يعرض سياسة الدول الخارجية والداخلية ، وأن تكون له فكرة عن التاريخ السياسي والعسكري والاقتصادي لبلاده اثناء كفاح والده ، ثم عليه أن يكون على اطلاع بالعلاقات القبلية والطرق الصوفيه وصراع القيادات الشخصية اثناء ذلك الكفاح ، وهو موضوع معقد ذو نسيج متشابك لا يخوضه الا خبير معتدل في احكامه . ولكي يوازن الامير محمد ذلك ويتغلب على الصعوبات وفر له مكتبة غنية بالكتب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمذكرات والصحف والوثائق والمراسلات ، بالاضافة الى عمله على ترجمة بعض الكتب الاجنبية للعربية . ويمكننا ان نصنف مراجعه الى هذه الاصناف :

١ ـ حديثه مع والده ومشاركته هو في الأحداث او مشاهدته لها ، وهو مايمكن ان نسميه بالتجربة الشخصية .

٢ ـ وثائق الأسرة كالرسوم والانساب ، مثل شجرة الاسرة وسندها المفصل .

٣ ـ الوثائق الرسمية مثل المعاهدات والاتفاقات والتعهدات (مثل معاهدة ديميشال والتافنة .. الخ) .

٤ ـ الكتب الأجنبية المترجمة الى العربية سواء كانت عن والده أو عن تاريخ الجزائر عموما .

٥ ـ الكتب العربية عن الأمير والجزائر والمغرب العربي والأندلس (مثل كتب ابن خلدون ، وابن حزم ، وابن الخطيب)[١٩] .

٦ ـ المراسلات وهي كثيرة سواء منها الرسمية أو الشخصية .

٧ ـ الصحف المعاصرة ، عربية واجنبية .

٨ ـ انتاج الامير نفسه من الشعر والنثر .

ويقول الامير محمد عن الطريقة التي اتبعها لاستخراج الحقائق من هذه المصادر ، انه جعل والده هو الحكم . ذلك أن بعض المصادر قد جانبت ، في نظره ، الصواب لاعتبارات قومية وسياسية وشخصية ، رغم اعترافه بان بعضها قد مارس ضبط النفس وسار في طريق الحق . ومن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الممكن ان يقال هذا عن الامير محمد نفسه ، فما دام قد جعل والده هو مرجعه في تصويب المصيبين وتخطئة المخطئين ، فمن ادراه ان والده ايضا كان على خطأ فيما رأى وقدر ؟ ونحن وان كنا سنقول كلمة عن القيمة التاريخية للكتاب (تحفة الزائر) فاننا نبادر الى القول هنا بانه كتاب ادب ومذكرات وليس كتاب تاريخ بالمعنى العلمي للكلمة .

ويهمنا أن نسوق عبارة الامير محمد نفسه في هذا المجال ، تلك العبارة التي تكشف عن طريقته ومنهجه في كتابه . فهو يقول : « جلبتُ تواريخه ووقائعه (اي والده) المدونة باللغة الافرنجية ، وتكلفت ترجمتها الى العربية[٢٠] ، وبعد مطالعتها وامعان النظر فيها وجدت بعض مؤلفيها قد أصاب ، والبعض اخطأ جادة الصواب ، وحافظ فريق على انتصارات قومه ، ونسي الآخر احوال امسه وذكر وقائع يومه ... فلذا وضعت الاخبار في ميزان واحد ، وجعلت الحكم العدل شهادة سيدي الوالد ، فانه رب تلك المشاهد ، ولايستوي الغائب والشاهد ، وقد استخرجت من آثار مولاي خبرا يدل عليه دلالة اللفظ على المعنى »[٢١] . ولعل لفظة « آثار مولاي » ذات معنى هام في هذا المجال . ذلك انها تبرهن على أن الامير محمداً كانت له عند التأليف ثروة والده من المذكرات والاوراق الشخصية .

ويحتوي (تحفة الزائر) على معلومات غزيرة عن الجزائر في عهد كفاح الامير عبد القادر وعن الامير نفسه ، منذ نفيه سنة ١٨٤٧ الى وفاته ١٨٨٣ . ونحن نقول « في عهد كفاح الامير عبد القادر » لان الجزء الخاص بجغرافية المغرب العربي والجزائر خصوصا ، والدول الاسلامية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المتعاقبة على هذا الجزء من العالم العربي ، وان كان مفيدا ، الا انه غير اساسي ويظل مدخلا فقط للموضوع الرئيسي . كما اننا عنينا بكلمة « كفاح » ان المؤلف لم يؤرخ للجزائر في عهد حياة الامير الطويلة بل توقف معها بخروج الامير منها . فتاريخ الجزائر بين ١٨٤٧ و ١٨٨٣ غير مدروس في الكتاب . ذلك أن الامير محمداً يبقى متتبعا في كتابه تحركات والده وليس تطورات بلاده . كما ان القسم الاخير من الكتاب ضعيف من الناحية التاريخية لانه اقتصر فيه على ايراد الاشعار المديحية والرثائية ومقالات الصحف ونحو ذلك ، مما يقرب الى الجمع والحشو اكثر من التاريخ والدرس .

ولكن الكتاب يضم وثائق هامة تجعله مصدرا لا غنى عنه لدراسة تاريخ الجزائر خلال فترة الأمير . ولا شك أن ذلك راجع بالدرجة الاولى الى تمكن المؤلف من الاطلاع على اوراق الأسرة واستعمالها والى احساسه الفطري بالتاريخ وأهميته عند الامم والشعوب والأسر . ذلك ان حرصه على تدوين مآثر والده قد جعل الكتاب يخدم أيضا وطنه الجزائر وقومه واسرته ، بالاضافة الى تسجيل صفحة مجيدة في تاريخ الكفاح العربي والاسلامي ضد الغزو الاجنبي ، ومن ذلك يصدق تشبيه الامير بيوسف صلاح الدين الايوبي الى حد بعيد . وعلى هذا الاساس فان كتاب (تحفة الزائر) كان ، ولعله ، مايزال ، الكتاب الوحيد باللغة العربية الذي فصل الحديث عن المرحلة الاولى من الصراع الجزائري الفرنسي (١٨٣٠ ـ ١٨٤٧) .

ولكن الكتاب يبقى كتاب أدب أيضا . فمجاله هو عرض سيرة الامير عبد القادر البطل مع اعجاب واضح بمواقف البطولة ، وانتماء

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شخصي وعرقي الى البطل نفسه . وفي كثير من الحالات حجبت العاطفة والولاء والاعجاب قضايا التاريخ المعقدة . ثم ان اشتمال الكتاب على اشعار مختلفة ابياتا وقطعا وقصائد ، واسلوب التأليف القائم اساسا على السجع ، والحنين (او النوستلجيا) التي يتميز بها ـ كلها جعلت الكتاب قطعة أدبية اكثر منه دراسة تاريخية . ولعل المرء لا يترك الحديث عن هذه النقطة حتى يشير ايضا الى الجانب الصوفي من الكتاب . ذلك ان الوفاء لسيرة الامير جعلت المؤلف يسوق نصوصا له في هذا المجال ايضا . وهذا حق له ، ولكن المجال الصوفي ـ الفلسفي في الكتاب أضعف ايضا جانبه التاريخي .. فهل يمكننا القول اذن ان (تحفة الزائر) هو كتاب في سيرة الامير عبد القادر وليس في تاريخ الجزائر ؟ ان في العنوان الفرعي للكتاب جوابا على هذا السؤال ، اذ هو في مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر ولاشك ان كلمة « مآثر » أقوى من كلمة « أخبار » وهذه بدورها أخف من كلمة « تاريخ » .

لقد قسم الامير محمد كتابه الى قسمين منذ البداية . فجعل القسم الاول في سيرة الامير عبد القادر السيفية او الحربية وهو القسم الذي يحويه الجزء الاول من الكتاب سواء منه المطبوع والمخطوط . وهذا ما يمكن ان نسميه فترة مقاومة الامير في الجزائر بين ١٨٣٠ و ١٨٤٧ . وفي القسم مدخل طويل عن جغرافية وتاريخ المنطقة من أقدم العصور الى الاحتلال الفرنسي . اما القسم الثاني فقد خصصه لسيرة الامير العلمية او القلمية[٢٢] ، ويغطي هذا القسم من الناحية الزمنية سيرة الأمير منذ خروجه من الجزائر في آخر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٤٧ الى وفاته في شهر أيار (مايو) ١٨٨٣ م . وبمعنى آخر حياة الامير في فرنسا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والمشرق العربي والاسلامي . ولعله من الخطأ ان نسمي هذا القسم بقسم السيرة القلمية (او العلمية) لان الامير نظم الشعر وكتب الرسائل وألف ايضا قبل مغادرته الجزائر . حقيقة ان بعض انتاجه الصوفي قد كتب في مهجره ولكن الفترة التي يتناولها هذا القسم اطول بكثير من تاريخ تأليف انتاجه الصوفي .

ومهما كان الامر ، فان الامير محمداً لم يبوب عمله الى فصول وأبواب ولم يخضع كتابه الى منهج علمي دقيق ، وانما استخدم طريقة العناوين الصغيرة والانتقالات المتقاربة حسب موضوعات ذات مدلول ضيق ، مثل : ذكر كذا ، أو انتقال الامير الى ...، ونحو ذلك . وهي طريقة مملة ومشتة للذهن . وهذا ينطبق على النسخة المطبوعة والمخطوطة معاً . وهو أحيانا يستعمل عبارة « فصل في كذا » ولكن ذلك لا يدل حقا على التبويب المتبع حتى عند بعض القدماء وانما هو طريقة من طرق التفريع في البحث .

٤ ـ المقارنة بين النسخة المخطوطة والمطبوعة :

طبع كتاب تحفة الزائر ، كما أشرنا ، مرتين ، مرة في حياة المؤلف ، سنة ١٩٠٣ م والثانية سنة ١٩٦٤ م ، الطبعة الاولى في الاسكندرية والثانية في بيروت . وقد تميزت الطبعة الاولى بضيق السطور وصغر الحروف وانعدام الفقرات تقريبا وكثرة الاخطاء المطبعية وعدم وجود خرائط او صور او ثبت عام ، وليس فيها نبذة عن حياة المؤلف . اما الطبعة الثانية فتميزت بمقدمة للمحقق[٢٣] ، وبعض التعاليق والصور ، وسعة السطور وكبر الحروف ، كما لم تشتمل هذه الطبعة ايضا على ثبت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عام باسماء البلدان والاشخاص ولا على جدول بالخطأ والصواب . واذا كان يجوز لطبعة ١٩٠٣ أن تخرج بدون ثبت عام فانه لا يجوز ، في نظرنا ، لطبعة سنة ١٩٦٤ ، وهي طبعة تحمل سمة التحقيق ، ان تخرج بدون هذا الثبت .

والنسخة المخطوطة تقع أيضا كما قلنا ، في قسمين ، كل في مجلد منفصل . وهي مكتوبة بخط نسخي جيد وحروف بارزة وفنية ، في إطار جميل ومذهب . وتكاد تكون بدايات الجزأين ونهايتها واحدة ، مع اختلاف سنذكره في القسم الاخير من هذه الدراسة . ولا يوجد في النسخة المطبوعة تاريخ انتهاء المؤلف من تأليف كتابه ولكن هذا التاريخ في النسخة المخطوطة هو سنة ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠) أي سبع سنوات بعد وفاة الامير عبد القادر . ولايمكن في نظرنا ان تكون النسخة المخطوطة التي اطلعنا عليها مكتوبة بخط المؤلف ، لانه لا يعقل أن يؤلف احد المؤلفين عمله على ذلك النحو من التخطيط والتجميل والتذهيب والتأطير والصفاء . فلو كانت هذه النسخة « الاصلية » حقا لكانت غير مجملة كل هذا التجميل ولكانت فيها تخريجات وحواش وحذف واضافات ونحو ذلك مما يوجد عادة في النسخة الاولى من التأليف[٢٤] .

اذن ، هل نحن نتكلم هنا عن « النسخة الاصلية » أو نسخة مخطوطة مأخوذة عنها ؟ واذا كنا نتعامل مع نسخة مأخوذة عن الاصل ، وهو ما نميل اليه ، فأين هي نسخة المؤلف المسروقة منه ؟ هل اعدمت بعد ان نسخت يد الخطاط الماهر منها هذه النسخة التي بين ايدينا ؟ نحن نستبعد ذلك . ونميل الى أن نسخة المؤلف ما تزال موجودة في احدى المكتبات الخاصة سواء مكتبة الشخص الذي سرقها ، أو الشخص الذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

آلت اليه بسبب من الاسباب[٢٥] . وعلى فرض ان هذا صحيح ، فمن هو خطاط نسختنا يا ترى ؟ انه لا يوجد على النسخة المصورة اسم الخطاط او الناسخ ، ويبدو من المؤكد ان الذي خططها على الشكل الذي وجدناها عليه اراد بها وجه السلطان عبد الحميد لأن عبارة الاهداء اليه في النص مكتوبة بخط جميل وغليظ ، وكأنها هي المقصودة من التخطيط كله . ولكن من كان وراء فكرة التخطيط اصلا ؟ هل هو المؤلف نفسه الذي ، نفترض ، انه سلم عمله لأحد الخطاطين فدبج له ما اراد ولكن السرقة وقعت لهذه النسخة المدبجة من عند الخطاط او من عند المؤلف ، قبل ان يقوم هذا بتقديمها الى السلطان ؟ او ان مسودة المؤلف هي التي سرقت منه واخذت الى احد الخطاطين فاستخرج عليها النسخة التي رايناها وقدمها السارق نفسه الى السلطان لغرض ما ؟ اننا نميل الى الاحتمال الثاني ، لأنه هو الذي يحرم المؤلف من نسخته الاصلية ويجعله يلجأ الى كتابة عمله من جديد . اما الاحتمال الاول فهو بعيد لان المؤلف عندئذ يكون قد حافظ على نسخته الاصلية وان ضاعت منه المدبجة ، ولم يكن في حاجة الى اعادة التأليف .

ولكن السؤال المحير حقا هو : من كان وراء السرقة وما الهدف منها ؟ ان اخوة المؤلف وأسرة الأمير عبد القادر على العموم لم تكن ، كما ذكرنا ، متفقة على الولاء للدولة العثمانية . وكان هناك انقسام في صفوف الأسرة اشار اليه المؤلف نفسه عند حديثه عن المبايعة له بعد وفاة الوالد . كما كان هناك تحاسد وتنافس على الفوز برضا هذا أو ذاك من كبار الدولة العثمانية او الفرنسية . وقد لمح المؤلف نفسه الى كون المسألة « عائلية » عندما دعا على سارق النسخة بقوله : « فسطت عليه يد من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لابارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا من حرز مثله ، جزاه الله على ما ابداه من حسده ، في نفسه وماله وولده ... » ونعتقد ان سارقها الذي قدمها بذلك الاهداء الفخم اراد التقرب بذلك الى السلطان لغرض دنيوي ، سياسي او مالي مثلا . اقرأ معي ما جاء في النسخة المخطوطة من اهداء (وهو مفقود تماما من النسخة المطبوعة) « وبعد ان انتهيت من ترتيبه ، وامعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، قدمته لسدة سلطنة ولي النعم ، ومالك ملوك العرب والعجم ، حامي حوزة الملك بالسيف الباتر والحزم الوافر والحلم السافر ، الجامع بحسن الابتداء بذكر اسمه الحميد ، وتشنفت المسامع بدر وصفه العزيز المجيد ، امير المؤمنين ، وظل الله على العالمين الخليفة الأعظم الخاقان الأفخم السلطان الغازي عبد الحميد خان ، أيده الله بسر الكتاب المبين ، وأمد جنوده بالملائكة المقربين :

آمين آمين لا يرضى بواحدة حتى اضيف اليها الف آمينا

راجيا ان يحظى بلثم رائحته الكريمة ، ويلحظ بعين عنايته الفخيمة ، فينجلي نجم سعده في سماء الاقبال ، ويتحلى بحلى القبول ويرفل في حلل الكمال ، وسميته ... تحفة الزائر ، الخ . » .

وهناك قضية اخرى ما زلنا لم نجد لها حلا ، وهي لماذا طبع الامير محمد كتابه في الاسكندرية بالذات ؟ واين كان هو عند طبع الكتاب ، في الآستانة او في دمشق او في مصر ؟ ولماذا المطبعة التجارية بالذات ايضا ؟ وهل لوجود الانجليز في مصر دخل في تغيير وجهة نظر المؤلف من الدولة العثمانية ، ومن السلطان عبد الحميد خصوصا ؟ وهل يفسر لنا ذلك حذف الاهداء السابق من النسخة المطبوعة تماما ؟ أسئلة كثيرة لا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يمكننا الجواب عليها الآن . وبالاضافة الى ذلك هناك احتمال دخول المؤلف في حزب اللامركزية الإسلامي الذي كان بعض أتباعه مغضوبا عليهم فهاجروا او هربوا في اوائل هذا القرن الى مصر ، ومنهم المؤلف ، فهل هذا ايضا وارد ؟ اننا لانملك الجواب عليه الآن .

واثناء عقدنا للمقارنة بين النسختين المخطوطة والمطبوعة وجدنا ان الاولى أشمل وأوفى ، وانها قد احتوت على تفاصيل ووثائق مفقودة في الثانية ، ولكن العكس احيانا صحيح ايضا . كما يلاحظ المرء تقديم او تأخير الحوادث بين النسختين . ويوجد في المخطوطة تاريخ الانتهاء من التأليف ، وهو ١٨٩٠ ، كما ذكرنا بينما المطبوعة خالية من هذا التاريخ . وقد قرأت نصيبا كبيرا من النسختين على وجه المقارنة مع كل من الاستاذين : الشيخ محمد الطاهر التليلي بقمار ، والدكتور ابو العيد دودو بمدينة الجزائر ، وقارنا الفهارس في النسختين وبعض الوثائق والاشعار ، فوجدناهما نسختين مختلفتين حقا ، ولا يمكن ان يقال ان المطبوعة نسخة عن المخطوطة وانما المؤلف في الواقع كتب تأليفه مرتين ، ففصل في المرة الاولى وأوجز في الثانية ، كما انه قد عكس احيانا ، وان الذي يجمع بين النسختين هو وحدة الموضوع ووحدة العاطفة ووحدة المؤلف وليس وحدة النص او المتن .

ولكي نشرك القارئ معنا في إدراك بعض الفروق بين النسختين عمدنا الى استخراج عبارات من مقدمة النسختين ، ونصوص من اوائل واواخر الجزئين وبعض النصوص الداخلية ، وجعلنا هذه النقول على هذا النحو :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

١ ـ نص من مقدمة النسخة المطبوعة فيه ذكر سرقة النسخة وليس معه الاهداء الى السلطان عبد الحميد الثاني ، يقابله نص من مقدمة النسخة المخطوطة فيه الاهداء الى السلطان وليس فيه ذكر السرقة .

٢ ـ نص يتضمن نهاية الجزء الاول في النسختين ، وفيه يظهر التوسع في المطبوعة اكثر من المخطوطة .

٣ ـ نص يتضمن بداية الجزء الثاني في النسختين ، وفيه يظهر التقديم والتأخير ، والتوازن والتوسع .

٤ ـ نص يتضمن نهاية الجزء الثاني في النسختين ، وفيه يظهر الفرق واضحا ، اذ اقتضب المؤلف في المطبوعة وأسهب في المخطوطة ، مع ذكر تاريخ الانتهاء من التأليف .

٥ ـ نص عام من النسختين كنموذج للفرق بينهما ، وفيه يظهر كيف قصر في المطبوعة وطول في المخطوطة ويظهر من النص الطويل رأي المؤلف في عدة أمور تاريخية ومعاصرة (ومن هذا النوع كثير في الفرق بين النسختين) .

٦ ـ نماذج من اختلاف العبارات في متن النسختين ، وقد استخرجنا النماذج من المقدمتين فقط . ويمكن القياس عليها في بقية المتن .

وقد أردنا من ذلك ان نوضح للقارئ مدى الاختلاف بين النسختين سواء من حيث النصوص الكاملة او من حيث نسج العبارات والألفاظ .

وفي نهاية هذه المقالة نود أن نطرح سؤالا وهو هل يمكن نشر النسخة المخطوطة على انها الاصلية من (تحفة الزائر) ؟ يبدو أن ذلك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ممكن وواجب لأنها هي النسخة التي وضعها المؤلف اساسا لكتابه وهي التي تعبر عن وجهة نظره في الاحداث وفي والده وفي العلاقات العامة قبل ان تبرد عاطفته وتؤثر فيها بعض مجريات الامور المستجدة ، وقبل أن يفقد بعض مواد الكتاب التي نبه عليها . ولذلك فنحن عازمون على اخراجها الى الناس محققة ان شاء الله ، ولكن هذا لا يمنعنا ، ولا يمنع غيرنا ، من البحث عن النسخة التي كتبت بخط المؤلف اصلا .

الدكتور ابو القاسم سعد الله

آن آربر (امريكا) ، جامعة ميشيغان

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٥ ـ نصوص من النسختين للمقارنة

من ديباجة النسخة المطبوعة

ولما فرغت من ترتيبه ، وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، حصرته في قسمين الاول في سيرته السيفية ، والثاني في سيرته القلمية[٢٦] ، وسميته : تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر واخبار الجزائر . فسطت عليه يد من لابارك الله بأصله ونسله ، وسرقته عمدا من حرز مثله . جزاه الله على ما ابداه من حسده ، في نفسه وماله وولده ثم شمرتُ عن ساعد الاجتهاد ، لجمع ما تفرق من المواد ، بعد ان فقد منها الاكثر ، وبقي من المسودة ما لايذكر ، فجاء مطابقاً للاصل ، وخاب من الحاسد ، والمنة لله ، الأعلى ..

(المقدمة في ذكر جغرافية اقسام المغرب) الخ .

من ديباجة النسخة المخطوطة

وبعد ان انتهيت من ترتيبه وأمعنت النظر في تحريره وتهذيبه ، قدمته لسدة سلطنة ولي النعم ، ومالك ملوك العرب والعجم ، حامي حوزة الملك بالسيف الباتر ، والحزم الوافر والحلم السافر ، والجامع بحسن الابتداء بذكر اسمه الحميد ، وتشنفت المسامع بدر وصفه العزيز المجيد ، امير المؤمنين وظل الله على العالمين ، الخليفة الاعظم ، الخاقان الافخم ، السلطان الغازي عبد الحميد خان ، ايده الله بسر الكتاب المبين ، وامد جنوده بالملائكة المقربين

آمين آمين لا يرضى بواحدة

حتى اضيف اليها الف آمينا

راجيا ان يحظى بلثم راحته الكريمة ، ويلحظ بعين عنايته الفخيمة ، فينجلي نجم سعده في سماء الاقبال ، ويتحلى بحلى القبول ويرفل في حلل الكمال ، وسميته : تحفة الزائر في مآثر الامير عبد القادر وأخبار الجزائر ، راجيا ان يطابق اسمه مسماه ، ويقتنيه من جعل الادب غاية مرماه ، فيتخذه في خلوته سميرا وجليسا ، وعلى الله قصد السبيل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(المقدمة في ذكر جغرافية اقسام المغرب) الخ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نهاية ج ١ مطبوع

وفي غد تلك الليلة (ليلة اجتماع الامير بابن الملك ، الدوق دومال) توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيمها الى جامع الغزوات وعند رجوعه تلقاه الامير على جواده الادهم . وبعد ان نزل عنه اهداه اليه مع طبانجته وساعته فقبلهم ، ثم اجتمعا اجتماعا مخصوصا جدد فيه ابن الملك العهد للامير وزاده وثوقا ، واهدى للامير ايضا طبانجته وساعته . ثم سأله عمن يرافقه في غربته الى المشرق فسمى له اهله واولاده وخليفته السيد مصطفى بن التهامي والسيد قدور بن علال وغيرهما من حشمه واتباعه في مائتي نفس . قال بعض مؤرخيهم ان مما يجب الحيرة ويستحق التعجب ان عسكر الامير عبد القادر كاد ان يصل عدده الى الفين من الخيالة وعشرة آلاف من المشاة وقد قاوم به جيشا عظيما من جيوش اكبر دولة من دول اوروبا يبلغ عدده مائة الف وستة آلاف ما بين فارس وراجل مدة ست عشرة سنة الخ .

(وبعد ٢٢ سطرا قال المؤلف :)

وبتسليم سيفه انتهت سيرته السيفية . وهي الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني في سيرته العلمية[٢٧] ، والله ولي التوفيق .

(ص ٣٢٥ ـ ٣٢٦)

نهاية ج ١ مخطوط

وفي غد تلك الليلة توجه ابن الملك نحو الجنود الفرنساوية المقبلة من مخيمها الى جامع الغزوات ، وعند رجوعه تلقاه الأمير على جواده الأدهم . وبعد ان نزل عنه أهداه اليه مع طبانجتيه وساعته فقبلهم ثم اجتمعا اجتماعا مخصوصا جدد فيه ابن الملك العهد للامير وزاده وثوقا ، واهدى للامير ايضا طبانجتيه وساعته . ثم سأله عمن يرافقه في غربته الى المشرق فسمى له اهله وأولاده وخليفته السيد مصطفى ابن التهامي والسيد قدور بن علال وغيرهما من حشمه وأتباعه في مائتين نفسا .

وهنا انتهت سيرته السيفيه وشرع في سيرته الكفّية ، وهي أول الجزء الثاني .

(ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بداية الجزء الثاني ـ مطبوع

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ركوب الامير البحر ووصوله الى طولون وما اتفق له مع دولة فرنسا

انه في ثالث يوم وصوله الى جامع الغزوات سار بأهله ومن بمعيته الى المرسى والناس على اليمين والشمال يبكون وينتحبون ، ولم يزالوا على ذلك الى ان ركب البارجة الحربية المعدة لركوبه واسمها (احموده) وتوجه نحو فرانسا ، ولسان الحال ينشد قول ابن ابي لبانة[٦] شاعر ابن عباد :

تبكي السماء بمزن رائح غادي
على البهاليل من ابناء عبادي (كذا)

(الخ ١٥ بيتا منها)

ثم ان المسلمين صاروا آسفين تتصعد زفراتهم وتنسكب عبراتهم ، ولا سيا شيعته واهل محبته . كيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يستمطرون خيره ويقيهم اعتداء العدو وشره ويحيطهم من كل مكروه ، وينيل كل واحد ما يؤمله ويرجوه ،

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
بلى نحن كنا اهلها فابادنا
صروف الليالي والجدود العواثر

وقد تذكرت هنا ما قاله خاتمة ادباء الاندلس صالح ابن شريف :

بداية الجزء الثاني ـ مخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم

ذكر ما اتفق للامير مع دولة فرنسا بعد ركوبه البحر ووصوله الى طولون .

وفي الثالث من وصولنا الى الغزوات سار الأمير بأهله وبمن تعين بمعيته الى المرسى والناس على اليمين والشمال يبكون وينحبون ولم يزل الحال على ذلك الى ان ركبنا البارجة الحربية المعدة لركوبنا وسارت بنا نحو فرنسا :

سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها ابل يحدو بها الحادي

وبقي المسلمون آسفين تتصعد زفراتهم وتنسكب عبراتهم وتتوقد حسراتهم لا سيا شيعته وأهل محبته فانهم غدا عليهم فراقه بالمكاره وراح ، وضاق عليهم المتسع من اوطانهم والبراح ، وعمهم الجزع والهلوع ، واغب اجفانهم النوم والهجوع ، وكيف لا وقد طار من بينهم من كانوا يرتضعون دره ، ويستمطرون خيره ، ويقيهم اعتداء العدو وشره ، ويحيطهم من كل مكروه ، وينيل كل واحد منهم ما يأمله ويرجوه ، ثم أمسوا فرادى لا أنيس لهم ولا جليس ، ولا مال لهم حتى اليعافر والعيس ، كدربهم يغور وينجد ، ولسان حالهم يقول وينشد :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لكل شيء اذا مـــا تم نقصـــان
فـــلا يغر بطيب العيش انســـان
(الخ ١٢٠ بيتا) (ص ٤-٥).

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفـــا
انيس ولم يسمر بمكـــة ســـامر
بلى نحن كنـا اهلهـا فـابـادنـا
صروف الليـــالي والجـــدود العـواثر

وقد تذكرت هنا ما قـالـه شـاعر بني عبـاد عند نكبته الشهيرة :

تبكي السماء بمـزن رائـح غـــادي
على البهـاليـل من ابنـا (كـذا) عبـادي
(كـــــــــــــــــــــذا)
(الخ . ثمانية أبيات .)

نهاية الجزء الثاني - مطبوع

وها هنـا جواد المقـال بنـا قـد وقف ، وأقر لسـانُ اليراع بـالعجـز عن استقصـاء مناقبه واعترف ، وقصر الباع مع قلة المتـاع يـوجبـان لهـذا الفقير العـذر ، والم الفراق الـذي لا يطـاق برهـان التبلـد والحصر ، وغاية ما أقول : العـذر عنـد خيـار النـاس مقبول ، والحمد لله في البدء والختـام ، وعلى حبيبه الاعظم وآله واصحـابـه افضل الصلاة والسلام .

(ص ٢٠٧) .

نهاية الجزء الثاني - مخطوط

وهنـــا انتهى القلم في تنسيـق مـــا قصدناه ، على الوجه الـذي أردنـاه ، فجـاء بحمده تعالى كتابـا كلل الصـدق تيجـانـه ، وسلسـل التحقيـق غـدرانـه ، ولعبت يـد التهذيب بأغصـان سطوره ، وصقلت وجوه تحبيره فانطبع في طروسه خيال سيرة الامير كأنهـا روض آس ، أو كعـذارى ميـاس ، وابـان عن أخبـاره وأحوالـه ، ومثـل كيف كان في احـوال كبره وفي ايـام اقبـالـه . وبـذلـك يعرف المطـالع ان محـل الامير من الفضل المحل الاسنى ومقامه من الكمال المقام الاسمى ، وقـد رمت استقصـاء منـاقبـه فوقفت وقوف من افحمه الحصر ، وقصـدت استيعـاب فضـائلـه فـادرك بـاعي القصر ، فـاقتصرت على مـا يوضح الغرض ، ويؤدي في الجملـة مـا يجب علي من حقـه المفترض ، معترفا بقصر الباع ، وقلة الراويـة (كـذا)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نص من ج ١ ـ المطبوع

ولما تولى بابا علي باشا بانتخاب اهل الشورى رفع الى حضرة السلطان احمد عريضة تنبئ بان وجود واليين في الجزائر موجب للفساد مستلزم للنزاع فقبل ذلك وأمر بان يكون انتخاب الولاة وعزلهم الى مجلس الشورى ، وأن يكون التصديق على ذلك من السلطنة . وقد تقدم ما كان للحكومة الجزائرية في سالف أمرها من سمو المنزلة وباهر السطوة ، الخ .

(ص ٧٢)

نص من ج ١ ـ المخطوط

الى أن تولى بابا علي رئيسا لمجلس الشورى سنة خمسة عشر ومائة والف . وكان شديد البأس قوي الجأش وله اعداء في نفس الحضرة فتمكن عامل الجزائر من اغرائهم عليه والسعي في تفريق الكلمة فاحس بابا علي بذلك ، واشخص عامل الجزائر الى الآستانة وقتل من وافقه ورفع شكاية الى سدة السلطان احمد خان الثالث معرضا بعدم قبول الجزائر عاملين لما يحدث عن ذلك من النزاع والخلاف فقبل السلطان شكايته وجعل امر التولية والعزل وتنفيذ الاحكام منوطا بالمجلس مع تصديق السلطان وابقاء الرايات والخطبة وضرب المسكوكات باسمه . واستمر الحال على ذلك الى تسلط الفرنسيس عليها . وقد وقع في يدي سكة من تلك المسكوكات مكتوبا على واحد منها سلطان البرين وخاقان وكلال الدراية ، هذا مع ما نحن عليه من شغل البال والتنقل في الحيرة من حال الى حال . وقد وفق الله سبحانه لاتمامه واستنشاق مسك ختامه في منتصف ربيع الأول الانور سنة ١٣٠٧ هجرية وسنة ١٨٩٠ ميلادية . والحمد لله في الابتدا والانتها ، والصلاة والسلام على ذي السنا والبها ، وعلى آله وأصحابه اولي النُّهى ، صلاة وسلاما دائمين متلازمين الى يوم الدين .

(ص ٥٠٣)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البحرين السلطان ابن السلطان ، السلطان عبد الحميد خان عز نصره ضرب في الجزائر سنة سبع وتسعين ومائة والف وعلى الآخر سلطان البرين وخاقان البحرين السلطان ابن السلطان ، السلطان محمود خان عز نصره ، ضرب في الجزائر سنة اثنتين وثلاثين ومائتين والف . ولذلك فان الدولة العلية الى الآن لا تقر ولا تعترف بتملك الفرنساوية على القطر الجزائري ولا لها وكيلا (كذا) به . واقول ، كما قيل ، الحق مع القوي ، ولكن الدوائر من شأنها ان تدور (ثم نقد لاذع لولاة الجزائر وسيرتهم في الرعية الى استيلاء الفرنسيين على الجزائر . وهو كلام غير موجود في النسخة المطبوعة .)

(ص ١١٥ ـ ١١٦)

تعابير مختلفة للفرق بين النسختين

المطبوعة (من المقدمة)

١ ـ بينما شمس سيادتنا في افق المغرب الاوسط طالعة ...

٢ ـ وجاءتنا جنود فرنسا من البحر كالذر فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ، ونبذل النفوس في حماية سكانه من كل بلية .

٣ ـ فأحاطت بنا جيوش تعدو وتناوش من دولتي فرانسا ومراكش . ولله في خلقه علم الغيب ...

٤ ـ ولما أراد الله تعالى ان لا نثبت في

المخطوطة (من المقدمة)

١ ـ بينما شمس امارتنا في افق المغرب الاوسط طالعة .

٢ ـ وجاءتنا جنود فرنسا من البر والبحر . فطفقنا ندافع عن الوطن بكل حمية ، ونبذل النفوس والنفيس في حماية الاهل والرعية .

٣ ـ فاحاطت بنا جيوش فرانسا وساموا بضائع راحتنا بخسا . وأبدلوا سعود تلك الايام نحسا ، ولله في خلقه علم الغيب ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وجوههم ، ولا نقوم بدفع صدماتهم وهجومهم ، رأينا التسليم للاقدار اولى ... فالقينا السلاح للفرنساويين بشروط مقررة .. وبالقدر فارقنا البلاد .. الخ .

٥ ـ ثم خرجنا من فرانسا ممتطين غارب البحر الى ان وصلنا اسلامبول المحمية ، دار السعادة ومقر الخلافة الاسلامية . فمكثنا بها سبعة ايام ... الخ .

(١ : ٣ ـ ٤)

٤ ـ ولما تم للعدو تغلبه على الوطن ، ودخل في حوزته من كان ارتحل من اهله ومن قطن ، ولم يعد في وسعنا أن نثبت في وجهه ... رأينا التسليم للاقدار اولى ... فالقينا السلاح اليه بشروط مقررة ... ثم انتقلنا الى فرنسا وفارقنا البلاد ... الخ .

٥ ـ فلبثنا في فرانسا خمسة أعوام ، في اكرام لائق واحترام ، نستنجز من الحكومة سالف عهدها ونترقب وفاء وعدها ، ... فاخذنا نجوب أرضا بعد ارض ... الى ان وصلنا الى الاستانة السنية ، دار السعادة ومحل الخلافة الاسلامية ، فمكثنا بها أسبوعا ... الخ .

الهوامش

(١) ـ طبع مرتين : الأولى سنة ١٩٠٣ بالمطبعة التجارية بالاسكندرية (مصر) ، والثانية بمطبعة دار اليقظة ، بيروت ، سنة ١٩٦٤ ، وقد عدنا في هذه المقالة الى الطبعة الاولى .

(٢) ـ من مقدمة الطبعة الاولى من كتاب (تحفة الزائر) ١ : ٧ .

(٣) ـ صدرت الطبعة الثانية بتحقيق الدكتور ممدوح حقي ، سنة ١٩٦٤ . وكان يبدو على التحقيق ، رغم حسن النية ، الارتجال الواضح والعمل التجاري وخدمة بعض أفراد اسرة الأمير عبد القادر اكثر من الخدمة العلمية ، وقد اكتفى الدكتور حقي بقوله عن النسخة المسروقة : « ولو وقع في أيدينا الكتاب الاول لرأينا فيه خيرا كثيرا . » ص (ح) .

(٤) ـ تجمدت العناية بتحفة الزائر والتعريف بالنسخة المفقودة منه ، لاهتمامي بمشروع (تاريخ الجزائر الثقافي) ، الذي صدر منه حتى الآن جزآن (الجزائر ، ١٩٨١) ، ولكن تنظيم جامعة الجزائر لسلسلة من المحاضرات بمناسبة الذكرى المئوية لوفاة الامير عبد القادر جعلني اساهم فيها بمحاضرة بعنوان (عن النسخة الأصلية من كتاب تحفة الزائر) يوم ٤ ايار (مايو) ١٩٨٣ . ومن الخطوط العريضة لهذه المحاضرة كتبت هذه المقالة ، التي لم تنشر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة

(٥) ـ يقول صاحب (الأعلام) ، ٧ / ٨٢ ، « ولعله ولد بدمشق » وهو خطأ واضح . ولاتوجد دراسة وافية عن حياة الامير محمد ، التي ما تزال يكتنفها الغموض رغم قربها منا ووجود بعض أحفاده واقاربه بيننا . ويمكن حصر مصادره في : الاعلام للزركلي ٧ / ٨٢ ، وبروكلمان (الذيل) ، ٢ / ٨٨٧ ، ومعجم المطبوعات لسركيس ص ، ٦٩٤ ، وتآليفه هو الخاصة ، اذ فيها سياقة لأحداث حياته في الطفولة والشباب . وقد ذكر صاحب (الاعلام) أن في مذكرات احمد عبيد أخباراً عنه ، ولكننا لم نطلع عليها . وهناك اخبار مطولة عن حياة أسرة الأمير عبد القادر في امبواز ، اثناء الاسر ، وفيها بالطبع اخبار عن الامير محمد ، وذلك في الارشيف الفرنسي الوطني بمدينة ايكس (فرنسا) . وكذلك يوجد عن حياته في كتاب الرحلة الحجازية لمحمد السنوسي التونسي ولا شك ان ارشيف القنصلية الفرنسية بدمشق خلال القرن الماضي يحتوي على أخبار هامة عنه ، لان هذه القنصلية كانت تتبع اخبار المهاجرين الجزائريين وتسجل نشاطهم وأفكارهم .

(٦) ـ ذكر في (تحفة الزائر) ج ٢ / ١٢ أنه سافر سنة ١٨٦٦ (١٢٨٣ هـ) الى فرنسا وقصد بوردو ، واستعاد ذكريات سجنه هناك وشرب في الفنجان الذي شرب فيه والده القهوة وأقام في الفندق الذي اقام فيه والده ايضا . ووجد ذلك مسجلا هناك . وقد ذكر الامير محمد ايضا ان والده كتب له من الحجاز بكل ما جرى له وشاهده من خروجه من بيروت الى الاسكندرية فالقاهرة فالسويس فجدة فمكة ، وهذا يدل على أنه لم يرافق والده في حجته الثانية .

(٧) ـ (تاريخ الاستاذ الامام) ، ج ٢ / ٦٣٤ .

(٨) ـ نفس المصدر ، ٢ / ٦١٣ .

(٩) ـ توفي باسطانبول سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣) . الاعلام ، ٧ / ٨٢ .

(١٠) ـ أبناء الامير عبد القادر هم : محمد ، محي الدين ، علي ، أحمد ، عبد الله ، عمر ، عبد الرزاق ، الهاشمي ، عبد المالك ، ومحي الدين هو الذي حاول المشاركة في ثورة ١٨٧١ بالجزائر . واصبح علي نائبا عن دمشق في مجلس المبعوثين باسطانبول ، وقتل عمر في دمشق عشية الحرب العالمية الاولى ، ومات الهاشمي الذي كان ضريرا (وهو والد الامير خالد) بالجزائر . وتولى عبد المالك وظيفة فرنسية في المغرب ثم ثار على فرنسا هناك وقتل سنة ١٩٢٤ . وعن المبايعة انظر (تحفة الزائر) ج ٢ / ٢٤٩ .

(١١) ـ جاءت للمشاركة في احتفالات الذكرى المئوية لوفاة جدها الأمير عبد القادر . وقد نفت لنا ان تكون تملك نسخة خطية من كتاب جدها ، الامير محمد ، (تحفة الزائر) ، كما اكد لنا ذلك الاستاذ محمد الطاهر بن عيشة يوم ٧ ايار (مايو) ١٩٨٣ م ، اذ قال انه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

شاهد وصور للتلفزة نسخة من مخطوطة (تحفة الزائر) اثناء حديث أجراه مع السيدة امل عبد القادر الجزائري .

(١٢) ـ اما الطبعة الثانية بتحقيق ممدوح حقي صدرت بعنوان (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والامير عبد القادر) ، دار اليقظة ، بيروت ، ١٩٦٤ . ولم ينبه على ذلك العنوان رغم انه ليس من وضع المؤلف .

(١٣) ـ اعادت طبع هذا الكتاب بـ (دمشق ، ١٩٦٣ ، ط٢) منشورات المكتب الاسلامي على نفقة الشيخ احمد بن الشيخ علي آل ثاني . جعل له الناشر مقدمة ، ورسالة في الخيل ايضا الفها عبد الله بن الحسين مؤسس الدولة الاردنية . وعدد صفحات (عقد الاجياد) في هذه الطبعة ٣٧٦ ص . وكان المؤلف قد فرغ من تأليفه سنة ١٢٩٠ هجرية .

(١٤) ـ عن مؤلفات الامير محمد باشا ، انظر معجم المطبوعات لسركيس ص ٦٩٤ ، والاعلام ٧ / ٨٢ .

(١٥) ـ تحدثنا عن ذلك في كتابنا (تاريخ الجزائر الثقافي) ج٢ .

(١٦) ـ كان منزل الأمير محمد بدمشق ، وقد أصبح ، بعد وفاة والده ومبايعة الاسرة له ، هو مركز النشاط ومقصد الزائرين .

(١٧) ـ توفي بقصره في دمر ، بضواحي دمشق ليلة السبت ١٩ رجب سنة ١٣٠٠ هـ (٢٤ أيار (ماي) ١٨٨٣ م) ، وحمل الى دمشق في منزل ابنه الاكبر ، الامير محمد ، صاحب (تحفة الزائر) ، وبعد الصلاة عليه في الجامع الأموي حمل الى الصالحية حيث دفن عند قبر الشيخ ابن العربي .

(١٨) ـ من مقدمة النسخة المطبوعة من كتاب (تحفة الزائر) ١ : ٥ ـ ٦ .

(١٩) ـ اعتمد على الخصوص على شرح منظومة (رقم الحلل في نظم الدول) للسان الدين ابن الخطيب ، و (ديوان العبر) لابن خلدون فيما يتعلق بتاريخ المغرب الاوسط وجغرافيته ودوله الاسلامية .

(٢٠) ـ في هذا دلالة على ان الامير محمد لم يكن يقرأ الفرنسية او غيرها من اللغات « الافرنجية » ولعله تعلم اللغة التركية . ومن الكتب الاجنبية التي استعملها في كتابه بكثرة كتاب شارل هنري تشرشل (حياة الامير عبد القادر) الذي ترجمناه نحن الى العربية ، وطبع طبعتين حتى الآن ، الجزائر ، ١٩٨٢ ، ط٢ . وكتاب الاسكندر بيلمار (حياة عبد القادر) . انظر المدخل الذي كتبناه لترجمتنا المذكورة لكتاب تشرشل .

(٢١) ـ تحفة الزائر ١ : ٦ ـ ٧ .

(٢٢) ـ جاء في النسخة المخطوطة « سيرته الكفية » وليس العلمية ولا القلمية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(٢٣) ـ هو الدكتور ممدوح حقي .

(٢٤) ـ اطلعنا زميلنا الدكتور صالح خرفي على نسخة خطية من (نزهة الخاطر في قريض الأمير عبد القادر) قد جلبها من دمشق من عائلة الامير محمد نفسه . وعند مقارنة خط (نزهة الخاطر) وخط (تحفة الزائر) وجدناهما متشابهين . وقد يدل هذا على أن خطاط النسختين واحد وان اصول النسختين كانت عند الامير محمد .

(٢٥) ـ يشير صاحب (الاعلام) ج١١ (الخطوط والصور) ، القسم الثاني رقم ١١١٩ ، و ١١٢٠ ، أن نسخة من (تحفة الزائر) بخط المؤلف توجد في المكتبة العربية في دمشق . وقد أورد نموذجا من خطه فيها فاذا هو :

١ ـ فيه شطب واضافة ويدل على قلم عادي وليس قلم خطاط (خلافاً لنسختنا المخطوطة ونسخة نزهة الخاطر التي عند الدكتور صالح خرفي) .

٢ ـ إن فاتحة نسخة المكتبة العربية لا تتطابق (حسب النموذج الذي أورده صاحب الاعلام) مع نسختنا المخطوطة ولا مع النسخة المطبوعة .

فهل بعد هذا يمكن القول بأن نسخة المكتبة العربية هي النسخة الأصل التي سرقت من المؤلف والتي منها خططت نسختنا ؟ الجواب على هذا يتوقف في نظرنا على الاطلاع على نسخة المكتبة العربية ، ونحن لم نفعل ذلك .

(٢٦) ـ كانت العلمية ومصححة القلمية .

(٢٧) ـ في صفحة عنوان الجزء الثاني : سيرته القلمية .

(١) [هو أبو بكر محمد بن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد]

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net